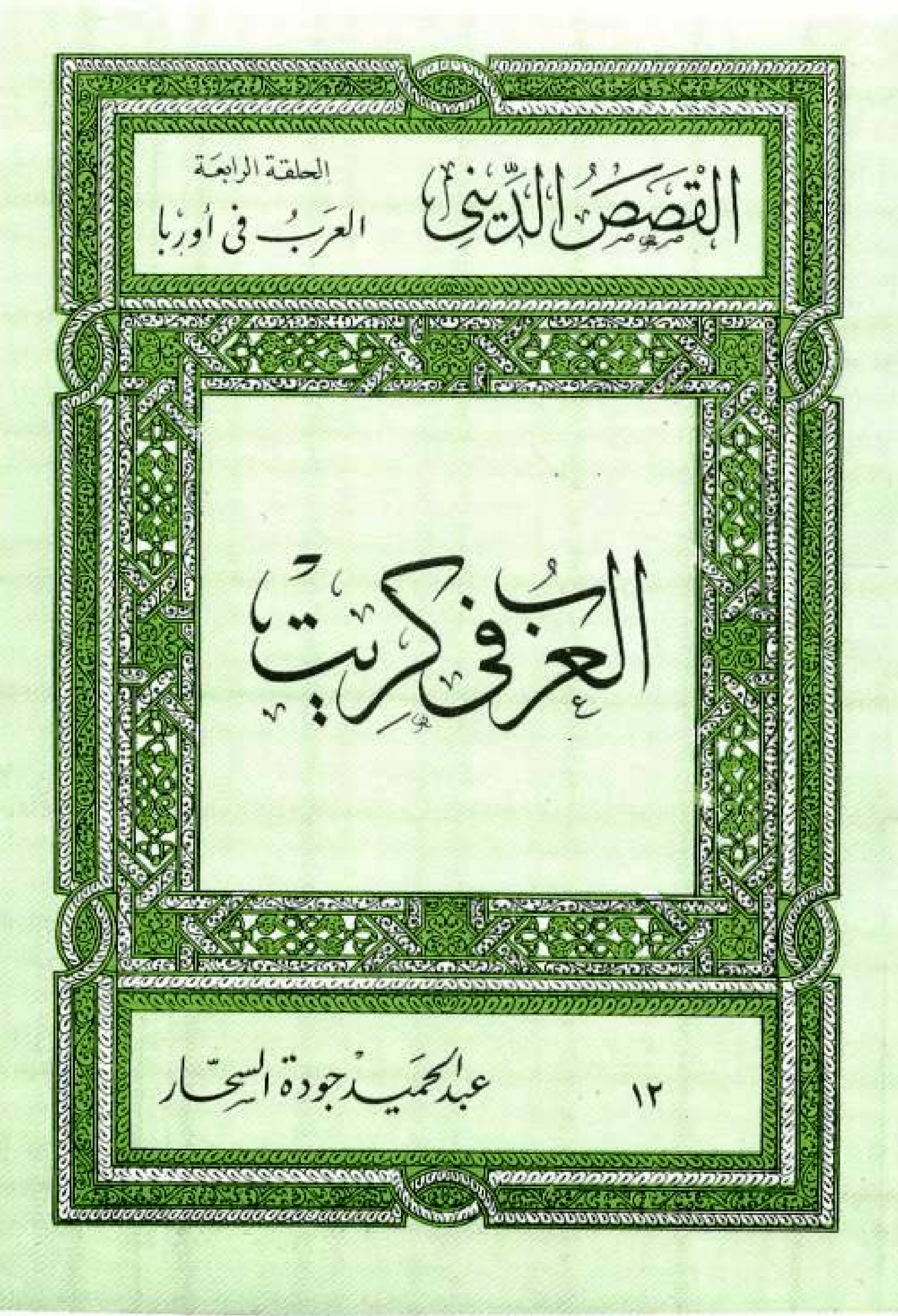


القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
العرب في كريت
عبد الحميد جودة السحار
١٢

١

أنوارُ قصرِ قُرطُبة تتألّق ، وأصواتُ المُغنّياتِ تـتردَّد في أرجائِه ، والجارياتُ في إقبالٍ وإدبارٍ كالأقمـار ، وكئوسُ الخمْرِ تُفْرَغُ في البُطون ، وشبابٌ فارغٌ يملأُ القاعة ضجيجًا وعَجيجا . والحكَمُ بـن هِشـامٍ ينهـلُ من اللّذات ، وهو غافِلٌ عمّا يعملُ في صدورِ أحرارِ الأندَلُسِيِّين من ثورةٍ وضِيق ، فهم يُشفِقُونَ على هذا المُلكِ الذى أسَّسُوهُ بدمـائهم ، ويخشَـونَ أن يتحمَّـلَ المسلمونَ نتائجَ عَبَثِ الحَكَمِ ولَهوِه . كانوا يطمَعُـون في أن يسيرَ بهـم إلى الأرضِ الكبـيرة ؛ إلى فرنســا وإيطاليا وألمانيــا ، ليُذكَـر اسمُ اللّـه فيهـا في الغُـدُوِّ والآصالِ ؛ فـإذا بـه يهجُـر الجِهــاد ، ليُقبِـلَ علـى الكَواعِبِ النّاهِدات .

آه لو سارَ إلى عدُوِّهـم ، لألْفـاهُم ليوثًـا كَواسِـر ، لا هَمَّ لهـم إلاَّ أن يُستَشـهَدُوا ، أو يفتَـحَ اللّـه عليهـم أرضًا جديدة ، أمّا وقدْ قَعَدَ عن الجهاد ، فحقٌّ عليهم جِهادُه ليثوبَ إليه رُشدُه ، أو يَنزِعُوه عن ملكِه .

واجتَمعَ فـى الرَّبَـضِ من قُرطُبَـةَ أعيـان الفُقهـاء : يَحيَى بنُ يحيى اللَّيثىّ صاحِبُ مـالِك ، وطـالوتُ بـنُ عبد الجَبّـار الفقيـه ، وأبـو حَفْصٍ عمـرُ بنُ شُعَيب البَلُّوطىّ ، وأهـلُ العِلـمِ والـوَرَع ؛ وراحُـوا يُدِيـرُونَ قِداحَ الرّأى بينَهم ، فاستَقَرَّ أمرُهـم علـى أن يشورُوا على الحَكَم ، وأن يَخلَعُوه ويُوَلُّوا عليهم أميرًا آخَر ، من قَرابَتِه ، يحمِلُ المسلمينَ على الجِهاد ، ورفعِ ألوِيَةِ الدِّينِ خَفّاقَةً فى العَالَمين .

وانْطَلَقُوا فى الرَّبض ، يُحَرِّضُونَ النّاس على الأميرِ الذى انهمَكَ فى لذّاتِـه ، ويُؤَجِّجُونَ فـى صُدُورِهـم

نارَ الثّورة ، حتّـى اندلَـعَ لهيبُهـا ؛ وإذا بـآلافٍ منهـم يُقرِّرُونَ خلْعَ الأميرِ المُنصَرِف عن سُنَنِ آبائِه .

وطـارَتِ الخمرُ من رأسِ الحَكَـم ، بعـدَ أن لَقِـيَ قَوائِمَ عرشِهِ تَكادُ تندَك ، فعزَمَ على أن يخرُجَ بنفسِـه لتأديب الثّائِرين ، فـأقبَلَ عليـه ابنُـه وكبـارُ قُـوّادِه يتوسَّلُونَ إليه :

ـ لا تُغامِرْ بنفسِك ، ابعثْ إليهم الجُيوش .

ـ لنْ يخرُجَ إليهم أحَدٌ غيرِى .

وخَـرَجَ الحَكَـمُ إليهـم علـى رأسِ جَيشٍ عظيـم ، ودَارَتْ فى الرَّبض معركةٌ رهيبة ، سالتْ فيهـا دمـاءُ المسـلمين ، وامتـلأَتِ الشَّـوارِعُ بجثَـث القَتلَـى ، وانكسَرَ أهـلُ الرَّبـض ، فـألقَى الحكـمُ القَبـضَ علـى ثلاثِ مائَة منهم ، وصَلَبَهم على النّهر ، ثمَّ خَلّى بـينَ جُنودِه وبينَ الحَىّ ، وأمَرَهم ألاّ يتعرَّضُوا للنّساء .

أعْمَلَ الجنودُ السَّيفَ فى الثُّوَّار ، وهَدَمُوا دُورَهم ومساجِدَهم ، وسلبُوا ما فيها من مالٍ ومَتاع . ونَزلَ بالثُّوَّارِ كَربٌ شديد حتّى إذا ما وافى اليومُ الثّالث ، عفَا الحَكَمُ على مَن بَقِىَ منهم ، على أن يُغادِرُوا البلادَ مع أُسَرِهم ، فراحُوا يتأهَّبُونَ للرَّحِيل .

٢

امتلأَتِ المَراكِبُ برجالٍ مُطَأطِئِى الرُّءُوس ، ونساءٍ تغسِلُ وجوهَهُنَّ الدُّموع ، وأطفالٌ مفزوعينَ مُرَوَّعين ، وقدْ وقفَ بينَ هؤلاءِ الذينَ تصدَّعَتْ قلوبُهم ، أبو حَفصٍ عمرُ بنُ شُعَيب البَلُّوطِىّ ، رافِعَ الرَّأس ، يُصدِرُ أوامِرَه إلى البَحَّارَة فى ثِقَةٍ وعَزْمٍ ، كأنَّما كان خارجًا فى غَزْوة ، لا طَرِيدًا لا يدرِى إلى أينَ يسير .

وفَصَلَتِ المَراكِبُ عن شواطِىءِ الأندَلُس ، فارتَفَعَ النَّحيبُ والعَويل ، وشَرِقَ الرِّجالُ بدموعِهِم ، حتَّى أبو حَفصٍ عمر بنُ شُعَيب ترقرقتِ العَبراتُ فى مَآقِيه ، ولكنْ سرْعانَ ما كَبَحَ جِماحَ عواطِفِه ، ورفَعَ رأسَه ، فما للزَّعيمِ أن يَضْعُفَ أمامَ من وَثِقُوا

به ، وألقَوا إليه مقاليدَ أمورِهم ، ليُخرِجَهم من ظُلُماتِ الواقعِ البَغيض .

وشَقّتِ المَراكِبُ عُبابَ الماء ، حتّى إذا بَلَغَتْ بَرّ العُدْوَة ، هَبَطَ منها ثَمانيةُ آلاف ، حيثُ تقَبَّلَهم إدريسُ بنُ إدريسَ في فاس ، وانطلَقَتِ المَراكبُ الأخرى تحملُ خمسةَ عشر ألفا ، يقودُهم أبو حفصٍ إلى المجهول . واستمرّتِ المراكبُ في انطلاقِها ، لا لشيء إلا الماءُ والسَّماءُ وتسبيحُ المُسبِّحين ، والابتهالُ إلى اللّه أن يُفرِّجَ عنهم ما هم فيه من كَربٍ شديد ، ولاحَتِ الإسكندريّة ، فخفقَتِ القُلوبُ في الصُّدُور ، واشرأبّتِ الأعناق ، ودَبَّتْ في المراكبِ الحياة ؛ فقدْ أصدَرَ أبو حفصٍ أمْرَه للرِّجالِ أن يتأهَّبُوا ، فقدْ قَرَّ رأيُه على النُّزولِ إلى الإسكندريّة .

ودَخَلَتِ المَراكِبُ المَرفأ ، وطَفِقَ الرِّجالُ يقفزونَ إلى الأرضِ كالأسود ، وقدْ شهَرُوا أسيافَهم وكشَّرُوا عن أنيابِهم ، فلمْ يعُدْ أمامهم إلاّ احتلالُ الإِسكندريَّة ، أو الموتُ دونَها .

وساحُوا فى الأرضِ ، وانتَشرُوا فى أرجاء المدينة ، وما سَقَطَ اللّيلُ ، حتى كان أبو حَفصٍ عمر بنُ شُعيبٍ البَلُّوطىّ الأندلُسىّ ، صاحِبَ الكَلمةِ المَسموعةِ فى البَلدة .

أفزَعَ سقوطُ الإِسكندريَّة فى أيدِى الأندلُسيِّين عبدَ اللّه بنَ طَلحَة ، صاحِبَ مصرَ للمأمونِ ابنِ الرَّشيد ، فجمَعَ جُموعَه ، ثمَّ انطَلَقَ إلى الإِسكندرِيَّة ، ليَطْرُدَ منها هؤلاء الغاصِبين ، الذين جاءُوا ليَزيدُوا فى متاعِبه ، كأنّما لم يكُن يكفيه تلكَ

الفتيةُ التى اجتاحَتِ البلاد ، وكادَت تعصِفُ به وبالخليفةِ الذى أرسَلَه .

وبلغَ الإسكندريَّة ، وحاصَرَها ، ودارَ القِتالُ بينَه وبينَ رجالِ أبى حَفْص ، وكانَ قِتالاً رهِيبا ، يَشِيبُ من هَولِه الوَليد . وأطرَقَ عبدُ الله بنُ طلحةَ يفكّر ، فألفَى أنَّه لو استَمَرَّ فى قتالِ اليائِسين فَسَيوهِنُ جَيشَه ، وقد يُطمِعُ ذلك السَّاخِطينَ والمُتربِّصين ؛ فألفَى من الخَير مصانَعَتهم ، وأن يؤدِّى لهم جانِبًا من المال على أن يُجلُوا عن الدِّيار . فأرسَلَ إليهم رُسُلَه ، وقَبِلَ أبو حفصٍ عمر بنُ شُعيبٍ الأندَلُسىّ ما عَرضَ عليه عبدُ الله بنُ طلحةَ من مال ، على أن يُجلُوا إلى جَزيرةٍ من جُزُرِ الرُّوم . وتأهَّبَ الرِّجالُ للرَّحيل ، وفى صُدُورِهم قَلق ، وفى نفسِهم مَرارَة ، وبينَ جَوانِحهم حَيرَة . خُيِّلَ إليهم أنَّ الدُّنيا قد سُدَّتْ فى

وُجُوهِهِم ؛ ولولا ثِقَتُهـم بزعيمِهم لاستولَى عليهـم يأسٌ وقُنوط .

وراحَ أبو حفصٍ يُصْدِرُ أوامِرَه ؛ وفي وجهِه ثِقةٌ وفي نفسِه أمَل ، وبينَ جَوانِحِه طُمأنينة . كان يرجُو إحْدَى الحُسنَيَين ؛ أن يَفتَح اللّه عليه أرضًا من أراضِي الأعداءِ أو يموتَ شهيدا .

وغادَرَتِ الإسكَندَرِيَّةَ أربعونَ سفِينة ، تَحمِلُ عَشرَةَ آلافِ مُقاتِل ، تَتَدفَّقُ في عرِقِهم دِماءٌ حارَّة ، وتَرتَسِمُ في مُحَيَّاهُم قوَّة العَزيمة .

ركِبَ المسلمونَ ثَبَجَ البحرِ كالمُلوكِ على الأسِرَّة ، وانسابَتِ المراكِبُ تحمِلُ المُجاهِدِين ؛ حتى إذا لاحَتْ إقْرِيطِشْ (كريت) تحفَّزَ الرِّجال ، وقَبَضُوا على سيوفهم ، وانطلقتِ الصَّيحاتُ مُدوِّيةً من الخناجر ، وطَفِقَ القُرَّاءُ يقرءُونَ آياتِ الجِهاد ؛

فاستَشْعَرَ الرِّجالُ كأنَّ نِيرانَ الإقدام تتأجَّجُ في صُدُورِهم ، وكأنَّ الكَونَ قد أُرهِفَ ليُسَجِّلَ آياتِ بطولاتِهم .

وأخَذَ الشاطىءُ يقترِبُ رُويدًا رُويدا ، فارتَجَّ المكانُ بالتَّهليلِ والتَّكبير ، وخُيِّلَ لسُكّانِ الجَزيرةِ أنَّهم يسمعُونَ زئيرَ الأسُود ، ففَرُّوا مُرتاعِين . وخَفَّتِ الحامِيةُ البيزَنطِيَّةُ إلى الشَّاطيء ، تَصُدُّ المُغِيرين ؛ ولكنَّ المسلمين راحوا يقفزون من المراكبِ إلى الأرض في رشاقةِ الغِزلان ، ويمشونَ إلى أعدائِهم مشيَ الوُعُول ، وقد أطلَّت من أسيافِهم المَنون .

وانكسَرَتِ الحاميةُ أمامَ سيلِ المسلمينَ الجارف ، ففرَّتْ مَفزُوعة ، تحتَمي بحُصُونِها الدَّاخِلِيَّة ، تنتظِرُ المَدَدَ الذي سيَبعَثُ به الإمبراطورُ ميخائِيلُ الثانِي ، إمبراطورُ الرُّوم ، من القُسطنطينيَّة ، لطردِ العَرب

الذين لم يكتفُوا بانتزاعِ الشّامِ ومصرَ وشَمالِ إفريقيّة من أيديهم ، بل جاءُوا يحتلُّونَ الجزائِر ، ليضرِبوا حَولَ بلادِ الرُّومِ نفسِها ستارًا حديديًّا .

ثبّتَ أبو حَفصٍ أقدامَه على الشّاطىء ، فكان أوّلَ ما بدأ به أن صَاحَ برجالِه : أحْرِقُوا السُّفُن .

فنظَرُوا إليه مشدُوهِين وقدْ تَسَمّرَتْ أقدامُهم بالأرض ، ولم يُسرِعُوا خِفافًا لتلبيةِ أمرِه ، كما اعتادُوا أن يفعلُوا ، فإذا به يَصِيحُ ثانية ، وفي غضب وعزم :

- أحرقُوا السُّفُن .

وأفاقُوا من الذُّهولِ الذى دَثّرَهم ، ووجدُوا ألسِنَتَهم ، فقالوا له :

- كيف تفعَلُ ذلك ؟ أتريدُ أن تقطعَ بينَنا وبين بلادِ المسلمين ؟

فقال فى ثورة ؟

ــ فيمَ شَكواكُم ؟ ألم أحمِلكم إلى أرضٍ تَفِيضُ باللبنِ والشَّهد ؟

ــ وأوطانُنا ؟

ــ هذهِ أوطانكم ، انسَوا أوطانَكم القَاحِلةَ الماحِلة ؟

ــ ونساؤُنا ؟

ــ ما أكثرَ النّساءَ الحِسانَ فى الجَزيرة ، إن هى إلا أن تستولُوا عليها ، وتُصبِحَ نساؤُها إماءَكم

ــ وأولادُنا ؟

ــ ما أجمَلَ أن تُنسلوا هنا ، وأن تُصبِحُوا آباءً لجيلٍ جديد ، يَذكُرُ اسمَ اللّه فى الغُدُوِّ والآصال .

وماتتِ اعتِراضَاتُهم أمامَ حُجَجه ، فأهْرعُوا إلى السُّفُنِ يحرِقُونَها ، واندَلَعَتْ ألسِنةُ النِّيرانِ

كالأبالِسة ، فزَادَ ذلك فى عَزْمِ جنودِه ، وأورَثَ رجالَ الحامِيةِ البِيزَنطِيَّة وهْنًا على وهن .

تقَدَّم أبو حفصٍ فى الجزيرة ، ولم يلقَ مقاومَة ؛ فقد أُهرِعَت الحاميةُ إلى الجبالِ تحتمى بها ، ونزَلَ بجندِه فى مكانٍ فَسيح ، وحفَرَ حولَ معسكَرِه خندَقًا هائلا ، فأُطلقَ اسمُ « الخَندَق » على الجزيرة ، وحَرَّفَه الغربيُّونَ فأصبَح « كائديا » .

وظلَّ أبو حفْصٍ فى تقَدُّمِه ، يَسْحَقُ كلَّ مقاوَمةٍ تعتَرِضُ سبيلَه ، حتّى خَلا لـه وَجهُ الجزيرة ، وأصبحت كلمتُه هى العليا . وجزِعَ ميخائيلُ الثّانى إمبراطورُ الرُّومِ لسُقُوطِ « كريت » فى أيدى هؤلاء المُغامِرين . فما إن انتهى من قَمْعِ الثورة التى قامَت - فى وجهِه - فى القُسْطنطينِيّة ، حتّى جَهَّزَ حَملَةً بَحرِيَّةً بقيادةِ أميرِ البَحرِ « أوريفاس » ، لطردِ الذين

انتَزَعُوا من الإِمبراطوريَّةِ ذلك الموقِعَ الهامَّ الذى سيُصبِحُ على الدَّوام شوكَةً فى جنبِها ، ما دامَ فيه هؤلاء العرب الذين راحُوا يضرِبُونَ حولَها نِطاقًا فُولاذِيًّا .

انطلقَ أوريفاسُ بأسطُولِه إلى إقرِيطِش (كريت) ، وما إن دنا من شواطِئِها حتى ألفَى أَبا حَفْصٍ وجنودَه يتأهَّبُونَ لاستِقْبالِه . وعلى شواطِئِ الجزيرة دارتِ المعركة قاسيةً مريرة ، سالت فيها الدِّماءُ ، وسقَطَتْ جُثَثُ القتلى ، وراحَ الموجُ يغمُرُها فى إقبالِه ، وينحَسِرُ عنها فى إدبارِه . ودوَّى المكانُ بالتَّكبير وصَيحاتِ المسلمين ، فألقَى اللّهُ الرُّعبَ فى قُلوبِ أعدائِهم ، فتقهْقَرُوا مهزومين ، ولاذُوا بمراكِبهم ، ثمَّ انسَحَبُوا مدْحورين يلعَقُونَ جِراحَهم ، وقدْ نكَّسوا رءُوسَهم خِزيًا وانكسارا .

واتَّخَذَ المسلمونَ من حِسانِ الجزيرة أُمَّهاتِ أولاد، وأصبَحُوا آباءَ لجيلٍ فَتِيٍّ يدينُ بالتَّوحيد، ويؤمنُ بوطَنِه الجديد، ويَذُبُّ عنه غاراتِ أباطِرة الرُّوم، ويُدافعُ عن الدَّولة التى أسَّسَها زعيمُهم: أبو حَفْصٍ عمرُ بنُ شُعَيبٍ البَلُّوطِيُّ الأندَلُسِيُّ الإقريطِيشِيّ، ويبذُلُ فى سَبيلِها دَمَه، ويجُودُ لها برُوحِه ومالِه.